

الفصل الثالث

الزمان والمكان

الزمان والمكان

فلسفة الزمان:

إذا كان قدر الإنسان أن يتأرجح بين الصراع والسعادة، فإن كلاهما يحتاج إلى زمن لكي يتحققا فيه، فلا يوجد صراع أو سعادة فى اللازمن. الزمن هو الحركة وهو التغير واللازمن هو الجمود ولا نستطيع أن نقول عليه الموت فالموت نهاية مرحلة من الزمن لتبدأ مرحلة أخرى.

إن الإنسان يعيش فى مجال الزمن الذى يتكون من الماضى والحاضر والمستقبل وهو مجال متغير ومتصل، نأخذ من ماضيه الذكري والتاريخ ونأخذ من حاضره ثلاث: الفعل ورد الفعل - الذكريات أو اجترار الماضى - التخطيط للمستقبل، لقد سبق وأن تكلمنا عن انفعالات الفعل ورد الفعل وسوف نتكلم عن الماضى أما المستقبل فهو فى علم الله نخطط له قدر علمنا وإمكانياتنا ولكن مازال المستقبل هو الزمن المجهول. يظن الإنسان أنه يحيا فى مجالين مختلفين وهما الزمان والمكان... ولكن يمكن اعتبارهما فلسفياً مجال واحد؛ فإن لم يوجد الزمان فلن يوجد المكان بأبعاده الحركية وإذا انعدم المكان فالزمان غير موجود، حتى اللقطة أو الصورة التى نراها جامدة لا حركة فيها فأنها أخذت جزء صغير من الزمن للحصول عليها ونأخذ جزء من الزمن لرؤيتها بعد طبعها.

جمع العالم أينشتين الزمان والمكان معاً فى نظريته عن النسبية، وعامل الزمان كبعد رابع مع الإحداثيات الثلاث المتعارف عليها. دعنا نتناول مثال خيالى، فعندما ينظر شخص ما على كوكب الأرض ذو بصر حاد إلى حدث ما على كوكب آخر (س) يبعد عن الأرض بمسافة تقدر بسنة ضوئية، أن الحدث الذى يراه هذا الشخص يكون قد انقضى عليه فترة زمنية هى سنة ضوئية، بالطبع

لايستطيع ساكن كوكب الأرض تحديد اتجاهات الكوكب الذى وقع فيه الحدث لأنه فى الوقت الذى يرى فيه الشخص الحدث من على كوكب الأرض يكون الكوكب (س) قد تحرك لمسافة سنة ضوئية أى تغير مكانه وقت الرؤية من على كوكب الأرض، إذ لابد من إدخال الزمان مع المكان لتحديد مكان الكوكب (س) وقت رؤية الحدث من سطح كوكب الأرض.

إن التغير فى المكان لا يتكون إلا بعد مرور زمن، فالتغير يحتاج إلى حركة والحركة تحتاج إلى زمن، فبالرغم من أن البعض يتعامل تحليلاً مع كل من الزمان والمكان بطريقة مختلفة فإنهما فى الحقيقة شئ واحد وإن اختلفا فى وحدات القياس فيقاس الزمن بالثانية أو أقل أو أكثر ويقاس الفرق أو البعد فى المكان بوحدات الطول والمساحة والحجم.

يدخل الزمن كعامل أساسى فى جميع مجالات حياتنا، نتناول جرعة الدواء ومنتظر حتى يمر بعض الوقت لنأخذ الجرعة الثانية، نقوم بتجربة عملية أو اجتماعية أو نفسية ومنتظر قليلاً من الوقت أو كثيراً للحصول على النتائج، نمرض وندعو إلى الله لكى يمن علينا بالشفاء وان يمر الوقت سريعاً، أو قد يتعجل البعض بالموت، كلا لما فيه مصلحته ولكن فى كل الأحوال نتمنى من الزمن أن يسرع أو يبطىء، إذا فكرت قليلاً فى معنى كلمة الصبر ستجد ان الصبر هو القدرة على تحمل مرور الوقت الذى يمر بنا فى حالة الشقاء والتعاسة أو حالة عدم الرضا عن الوضع الذى نحن فيه وقد نتمنى أن يمر الوقت سريعاً لحدوث تغير للأحسن أو حتى لكسر ملل الجمود.

لقد أصبح الزمن عاملاً هاماً حتى فى الاقتصاد، فإن الفائدة التى يحصل عليها مودع مبلغ من المال فى البنك ماهى إلا الجائزة التى يحصل عليها المودع للصبر على عدم استخدام المال فترة من الزمن، ولعدم الاستمتاع بإنفاق ماله على مشترياته أو على لذاته أثناء فترة الصبر. كما أصبح صافى معدل الفائدة والزمن عاملاً هاماً فى عمليات تمويل المشروعات وفى حساب التدفقات النقدية

وحساب القيمة الحالية لأي مشروع. لقد تغير مفهوم مجموع الأرباح فقط على مدى عمر المشروع فأصبح الربح مرتبطاً بالزمن الذى حدث فيه للحكم على الجدوى الإقتصادية للمشروع من عدمه. ولقد ارتبط الزمن بالصبر والعائد ولكن ليس دائماً ينال الصبور عائداً على صبره فقد يفشل المشروع ولا ينال إلا الخسارة ويبدأ الندم والإحباط، فكما يجىء الزمن بالعائد المادى والمعنوى يجىء الزمن أيضا بالندم والفشل.

لو تعود يازمن مرة ثانية... من منا لم يقل هذه العبارة متمنياً أن يعود الزمن ليغير من قراراته واختياراته بعد اكتساب خبرات وتجارب كثيرة ومفيدة على مدى الزمن الذى عاشه ولكن الإنسان ينسى أو يتناسى دائماً القدر، يريد الإنسان أن يلعب فى ملعب الحياة وحده، فالإنسان قد يعلم وقد يجهد وقد ينسى أو يتناسى قدره القادر ولكن يتمنى دائماً أن يكون له وحده القوة والمعرفة دون الآخرين.

نحن البشر نأخذ جزءاً صغيراً متناهياً فى الصغر من مسلسل الزمن، تبدأ بقصة من ملايين القصص وتنتهى مع ملايين من النهايات لتبدأ قصص جديدة فى أزمنة مختلفة وفى أماكن مختلفة وبغناء بعضنا من البشر نعتقد أن الكون مسخر لنا فقط، إلا تعلم أيها الإنسان أن الكون مسخر لجميع الكائنات من البشر وخلافه فى هذا الكوكب أو فى كواكب أخرى، مسخر للجميع باختلاف اللون أو اللغة أو العقيدة أو أى نوع آخر من الاختلافات. ولكن هل فعلا الكون المسخر لنا أو نحن مسخرين له، لو فكرت قليلاً ستجد أن النظام مبنى على أن الكل مسخر للكل فنحن نزرع النبات لاستخدامه ولكن نحن البشر نعتبر أيضاً سماء للنبات، نحن نرعى الحيوانات ولكن هى أيضاً ترعانا، نفترسها وتفترسنا، فى هذا النظام الكونى المنفعة للجميع والضرر أيضاً للجميع، فهذا هو النظام شئنا أو لم نشأ وسيظل النظام كما هو حتى يشاء الله وينتهى الزمان... إذا انتهى. عيبك يازمان إنك تجلب ألينا الملل والسأم والرتابة، نعم نستطيع التغلب على الملل بالعمل والقراءة

وممارسة الرياضة ومشاهدة التلفزيون أو خلافه من وسائل التسلية ولكن سنمل أيضا من تكرار نفس الفعل، حتى لو اخترعنا ألعاباً جديدة ووسائل حديثة للترفيه، فالوسيلة الوحيدة لكسر الملل هو تغير الفعل بعد فترة من زمن بفعل جديد مختلف، ولكن ليس جميعنا عنده القدرة والإمكانيات المتاحة للتغير، فالأمر لا يتطلب فقط الإمكانيات المادية ولكن يتطلب أيضا إمكانيات نفسية وبدنية لمواكبة التغير والصبر لفترات أطول إن لم يوجد إمكانية التغير. ويل للإنسان من وحش الملل إذا تمكن منه فآثاره مدمرة تؤدي إلى الإدمان والاكتئاب وتنتهي بالانتحار.

إن الصراع ضد الملل هو في الواقع صراع ضد الزمن الذي لا يريد أن يمر سريعا لنبدأ في فعل جديد، أو لكي تمر سريعا حالة الكآبة التي نعيش فيها الآن. لقد جلبت لنا أيها الزمن السعادة ولكن جلبت لنا أيضا التعاسة.

هل نستطيع التحكم في الزمن ؟

قد نستطيع فعلا عن طريق النوم فالأدوية المهدأة والمنومة كثيرة، بتناول هذه الأدوية نستطيع أن نتحمل مرور بعض الوقت ولكن لا نستطيع أن نظل زمنا طويلا في حالة سبات، كما أن الآثار الجانبية لهذه الأدوية مدمرة وقد تؤدي إلى الإدمان.

إن التأمل أو (نظرة الطير) التي تمسح ما تنظر إليه بعينها من أعلى إلى أسفل في سكون وتأمل لفلسفة ما نحن فيه وسيلة أخرى للتغلب على قسوة الزمن ورتابته إذا أصابنا مرض الملل. قد يتعدد الدواء ولكن المرض سيظل موجود مادام يوجد الزمن.

يمنح الزمان نفس الوقت لجميع الناس، فاليوم يحتوي على أربعة وعشرين ساعة يمنحها الزمان للكسول أو الدؤوب، ومن خلال ساعات اليوم أو أيام السنة يستطيع البعض أن يعمل الكثير أو يعمل القليل، فالزمن واحد ولكن يختلف الإحساس بالزمن واستثمار الوقت من إنسان لآخر.

يتغير عمر الإنسان، فمننا من يعيش سنوات قليلة ومنا من يطيل الله في عمره ليمر بمزيد من تجارب الصراع والسعادة، ولكن قياساً لعمر الكون يصبح عمر الفرد غير ذى معنى إلا إذا نظرنا إلى عمر البشر جميعاً كنظام واحد متشابك متصل ينبع منه تاريخ السنين، المكتوب منه أو المجهول، ففى هذه الحالة يصبح عمر الإنسان الفرد ذى معنى كجزء من هذا النظام.

عاشت فكرة تجميد البشر واسترجاعه فى المخيلة منذ فترة طويلة، قد تكون أحلام الآن، ولكن من يدرى ما سيحلبه لنا الزمان فى المستقبل فقد يستطيع العلم اختراع آلة الزمان، فإذا لم يعجبنا هذا الزمان نمنا عدة سنوات أو عدة قرون لنحيا من جديد ونعيش فى عهد آخر، لقد عاش قدماء المصريين بفكرة البعث للروح والجسد على الصورة التى كان عليها قبل الموت واحتفظ بطعامه وشرايه ومجوهراته لاستخدامها بعد البعث الذى ظن أنه آتى فى القريب، لقد حلم أجدادنا من قبل ومازلنا نحلم حتى الآن ومن يدرى ماذا سيحدث فى المستقبل.

لك الحق أيها الإنسان أن تقول: عشت فيك يازمن على أمل تحقيق أهدافى وبمرور الوقت لم يتحقق بعضها، وعشت مصدوماً مقهوراً أحياناً بالإحباط واليأس، وبمرور الوقت أيضاً تحققت بعض أهدافى ولكن شعرت بعد تحقيق هذه الأهداف انها كانت لا تستحق منى هذا الكد والتعب، هذا الكم من الصراع والكفاح الذى ليس له طائل (باطل الأباطيل كله باطل - قبض الريح)... لقد شقيت من أهدافى التى لم تتحقق، كما أحسست بتفاهة أهدافى التى تحققت وتمنيت يازمن أن تعود مرة ثانية لأبدأ من جديد، لأبدأ ماذا، لست أدري !!.

القليل منا من رضى عما فعله وقليل القليل من رضى عن قدرة واقتناع، وتظل القناعة والرضا هما قمة الإيمان والمدخل الحقيقى للسعادة.

* * *

فلسفة المكان

فى المكان عاش الإنسان، وضع أساس بيته وبناه ليشعر بخصوصيته ويحمى نفسه من غدر الطبيعة ومن تطفل الآخرين، فالفيضانات والعواصف وخلافه من كوارث الطبيعة قد تدمرنا والإنسان الشرير يترصد بنا والحيوان الكاسر ينتظر إغفائه منا. فى المكان حصل الإنسان على طعامه وشرابه بالزرع والصيد وتخزين المياه، وفى المكان أنشأ الإنسان مذبحه وأصنامه وطقوسه التعبدية. فى المكان عاش الإنسان ومات وأصبح ذكرى لإنسان آخر فى مكان آخر وزمان آخر.

تلائم الإنسان مع المكان وطبيعته، فالحبيبات الملونة الكثيفة التى تكونت لدى الزوج تساعد على مقاومة أشعة الشمس المحرقة فى أماكن استيطانهم، وطبقاً لنظرية دى كاسترو عن جغرافيا الجوع نجد أن نسب الخصوبة المرتفعة تصاحب الطبقات الفقيرة التى تعيش فى أماكن بها فقر فى الموارد الغذائية، مع الأخذ فى الاعتبار أن نقص المواد الغذائية له تأثير آخر عكسى من ضعف شديد للإناث الذى يترتب عليه الإجهاض. لقد أثبتت التجارب الحديثة التى أجريت على الحيوانات أن ارتفاع نسبة البروتينات فى الطعام قد يؤدى إلى بعض حالات العقم وانخفاض فى نسبة المواليد.

أثرت عوامل الطبيعة من تضاريس وظروف مناخية وخصوبة تربة وموارد مياه وثروة معدنية على توزيع السكان فوق كوكب الأرض، كثير من مناطق كوكب الأرض لا تسمح الطبيعة للإنسان أن يعيش فيها، ونتيجة لتأثير هذه العوامل على المناطق المختلفة من كوكب الأرض حدثت هجرات السكان وبدأ الصراع بين الوافد الجديد والساكن القديم. لقد هاجر سيدنا إبراهيم من شمال العراق إلى شمال صحراء النقب ثم إلى مصر، ثم هاجر سيدنا يعقوب وأبنائه إلى مصر عندما سادت الحرب أرض كنعان، وفى العصر الحديث هاجر إلى أمريكا

الكثير من الشعوب الأوروبية وخاصة الشعب الأيرلندى عندما تلف محصول البطاطس وحدثت مجاعة فى أيرلندا. وتلعب الهجرة دوراً هاماً فى الصراع وفى التغيرات الديموجرافية فى بعض البلاد، كما حدث فى دول الخليج العربى من تغير فى التركيبة السكانية بزيادة نسبة العاملين الأجانب الوافدين من آسيا ومن شمال أفريقيا.

تتأثر شخصية الإنسان بالمكان عن طريق البيئة التى تحيط بالفرد من باقى الأفراد الذين يتعامل معهم وكذلك طبيعة المكان من جبال وسهول وبحار وصحراء وغابات والتى ترتبط بالتبعية بأنواع النباتات والحيوانات التى يألفها الفرد. والبيئة أيضاً تعنى المناخ من حرارة أو برودة، من جفاف أو رطوبة، من أعاصير أو رياح معتدلة، من شمس مشرقة أو غيام وجفاف، فإذا كانت طبيعة الأرض تحدد للإنسان إلى حد ما نوع الطعام الذى يتناوله فالمناخ يحدد للإنسان نوع الملابس التى يرتديها وتصميم المسكن الذى يعيش فيه، كما يؤثر المناخ الحار والرطوبة العالية فى حيوية الإنسان وميوله إلى الكسل والاسترخاء. تدخل جميع هذه العوامل فى تكوين ثقافة الإنسان (Human Culture).

مع التقدم الحديث والسريع فى تكنولوجيا نظم المواصلات والاتصالات تضاءلت قوة تأثير عامل المكان، لقد أتيح للإنسان سهولة وسرعة الانتقال من مكان إلى آخر. إذا كان الزمان فى الماضى عائقاً للانتقال فإن بمقدور إنسان هذا الزمان الانتقال من طبيعة مكان إلى طبيعة أخرى أو من مناخ إلى مناخ آخر فى عدة ساعات يقضيها فى الاستمتاع بمشاهدة فيلم فى طائرة قد تكون أسرع من الصوت. استطاع الإنسان الحديث أن يتحكم عن طريق الهندسة الوراثية فى زراعة بعض النباتات فى غير بيئتها الطبيعية، كما استطاع الإنسان أن يستمتع بمعيشته فى أى مناخ عن طريق نظم التدفئة والتبريد.

فى النظام الكونى الذى نعيش فيه ارتبط المكان بالزمان بالرغم من اعتبارهما ظاهرياً مجالان مختلفان لهما وحدات قياس مختلفة، فلكى يتغير المكان لابد لهذا

التغير من زمان يحدث فيه هذا التغير، والمكان فى النظره الشامله هو الكون ككل من مجرات ونجوم وكواكب وفضاء لا نعرف له نهايات أو أطراف.

للمكان طبعه (Print) أو شخصيه خاصه به بما يحتويه من جماد أو كائنات حيه وبما يحتويه من طبيعه ومناخ - تتغير الشخصيه بتغير الزمان والمكان، و الجغرافيا كما قال د. جمال حمدان «ظل الأرض على الزمان»، وبنظره شامله يمكن اعتبار الحيز هو المكان ما إذا كان هذا الحيز فى كوكبنا أو فى أى موضع آخر فى هذا الكون.

فى منطقتنا الشرق أوسطيه مهدت جغرافيا المكان لنشوء الحضارة والطغيان، فإذا كانت مصر هى هبة النيل الذى مهد للحضارة الفرعونيه فإن نهري دجلة والفرات هما مهد الحضارة البابليه. ومن جهة أخرى فإن كل من يتحكم فى النهر يستطيع بسهوله أن يتحكم فى أرزاق سكان ما حول النهر من مياه لازمه للشرب ورى الزرع. لقد احتاجت الأنهار إلى سدود أقيمت بنظام السخره والاستعباد، وتتحكم أمير البلاد فى رزق العباد.

بنى الكون على الاختلاف وفى المكان المثال الجيد لهذا الاختلاف، من اختلاف فى التضاريس وفى المناخ وفى نوع التربة وفى الكائنات الحيه التى تعيش فى المكان، ومن خلال شخصيه المكان المميزه عن الأماكن الأخرى تختلف شخصيه الإنسان فكما أن الزمان عامل مهم لتغير شخصيه الإنسان فالمكان هو عامل آخر فى هذا التغير، فمن يعيش فى الغابات الاستوائيه بمناخها الحار الرطب سيكون مختلف عمن يعيش فى الصحراء بجوها الحار الجاف وندرة مياهها وعمن يعيش فى وادى به ماء وزرع، ومن يعيش فى كوكبنا الأرضى، اعتقد أنه سيختلف عن الكائنات الأخرى - إذا وجدت - التى تعيش فى كواكب أخرى، نحن نعيش بالماء والأكسجين، ولكن من يدري ما فى الكون من كائنات قد تعيش على سوائل أخرى وغازات مختلفه أو قد لا تحتاج إلى سائل أوغاز لتحيا وتتحرك، فالقادر قادر أن يخلق كائنات تعيش بدون أن تتنفس أو تناول الطعام

الذى يعتبر طاقة ضرورية للحياة ولازمة للحركة، يستطيع هذا الكائن المتحرك أن يحصل على الطاقة فى صورة كهرباء أو موجات مغناطيسية... من يدرى، نحن لا نعلم إلا القليل.

لقد ولد الإنسان بطبعه ملولاً، فخلق الله الأرض التى يعيش فيها مختلفة الطبيعة إذا سئنا البرد والجليد فلنذهب إلى مكان به مناخ استوائى وأحراش أو لنذهب إلى الصحراء المفتوحة الأفق الشاسعة الأبعاد، وإذا سئنا من اللون الأخضر الذى يكسو الأشجار فلدينا اللون الأصفر فى الصحراء، كما لدينا اللون الأزرق فى البحار والمحيطات أو اللون البنى فى الأنهار. إن مللنا من ثمار ونباتات وأزهار المناطق الباردة فلدينا أنواع أخرى فى المناطق الحارة لها لون مختلف ورائحة مختلفة وطعم آخر، يوجد فى مكان ما البترول أو الفحم، كما يوجد فى مكان آخر معادن أو أحجار كريمة أو غير كريمة (نحن البشر الذى كرمناها). لمانع أن نتزلق على الجليد فى بعض الأماكن فى شمال كوكبنا أو على أعالي الجبال، ولمانع أيضاً أن نسبح فى المياه الدافئة فى أماكن أخرى، لمانع من أن نستخدم البعد الثالث - الأفقى - ونطير أو نسبح فى الفضاء كما أننا نستطيع أيضاً أن ننزل فى باطن الأرض فالمكان متغير ونحن نحب التغير، لقد خلق الله التغير فى داخلنا وفيما حولنا. كما دخل المكان كعامل فى شخصية الإنسان فقد دخل كعامل أيضاً فى مجالات وعلوم كثيرة مثل الاقتصاد والسياحة، لقد اعتمد اقتصاد بلاد كثيرة على المكان من جذب سياحى واستغلال اقتصادى، لقد نوع الله المكان لتتحرك فيه ونعمل ونلهو، وفى الحركة بركة واكتساب خبرات جديدة وكسراً للملل.

نعم يستطيع الإنسان أن يخطط لمستقبله وأن يتحكم إلى حد ما فى الزمان، ولكن فى المكان الأمر يختلف فنحن نستطيع بالعلم الحديث أن نهد الأرض ونغير معالمها بالبناء عليها أو تجريفها، نستطيع أن نزيل جبال ونحفر أنفاق، نستطيع أن ننشأ بحيرات صناعية وسط أراضي جرداء ونزرع غابات فى أرض صحراوية

مقفرة أو نزيل غابات من أراضي استوائية، نحن نمتطع أيضا بالتكنولوجيا الحديثة أن نغير من مناخ المكان، فلا داعي للذهاب إلى البلاد الباردة للاستمتاع بالترحلق على الجليد أو السفر إلى البلاد الحارة للاستمتاع بدفء الجو، لقد اخترع الإنسان أجهزة تكيف الهواء وعاش مرفهاً بالنسبة إلى أجداده الأولين، لقد استطاع الإنسان التخفيف من قسوة الطبيعة من برق ورعد وزلازل، وما زال الإنسان يكافح للسيطرة على المكان والاستفادة منه على قدر المستطاع، إنه نوع إيجابي من الصراع والكفاح للوصول إلى سعادة الإنسان ورفاهيته.

* * *

الدورات

تعرف الدورة (Cycle) بصفة عامة بأنها الحركة أو التغير - فى شىء ما أو حالة ما - بالزيادة أو النقصان على أن يبدأ هذا التغير من نقطة معينة أو مستوى معين لفترة زمنية معينة لتعود للحالة إلى النقطة التى بدأت منها أو المستوى الذى بدأ منه بالتقريب، أو يعود الشىء إلى طبيعته الأولى التى كان عليها فى أول الدورة وعلى أن تتكرر الدورة على مدى أزمنة متساوية تقريباً. من الممكن أن تأخذ هذه الحركة أو هذا التغير الأشكال التالية:

حركة مادية دائرية أو شبه دائرية مثل حركة الاليكترون حول النواة فى الذرة، وحركة الكواكب حول النجوم و حركة الأقمار حول الكواكب وحركة الكواكب حول نفسها.

الموجات الكهرو مغناطيسية والتيار الكهربى المتردد.

التغيرات التى تحدث للبشر ومنها الدورة الذهنية (Intellectual Cycle) بطول ٣٣ يوماً، ودورة النشاط البدنى (Physical Cycle) بطول ٢٣ يوماً، والدورة المزاجية أو العاطفية (Emotional Cycle) بطول ٢٨ يوماً، والدورة الشهرية للمرأة وكذلك الدورة الدموية / التنفسية وخلافه من الدورات الأخرى داخل جسم الإنسان.

الدورات الاقتصادية طويلة المدى، متوسطة المدى وقصيرة المدى التى تتكون داخل السلسلة الزمنية (Time Series) والتى فيها تتغير الحالة الاقتصادية من كساد إلى رواج إلى كساد.... وكذلك الدورة الموسمية (Seasonal Variations) التى تتكون أيضا داخل السلسلة الزمنية مع الدورة الاقتصادية.

الدورات المناخية الموسمية مثل التغيرات فى فصول السنة (صيف / خريف / شتاء / ربيع)، مواسم الأمطار، والجفاف، الرطوبة، الفيضانات، الأعاصير،... إلخ.

الدورة الحياتية بأن يتغذى الإنسان على الحيوان والنبات ثم يموت الإنسان ويدفن ليصبح سماد يتغذى عليه النبات.

دورة الأمطار التي تسقط على البحار والمحيطات والأنهار ثم يتبخر الماء ليتحول إلى سحاب الذى بدوره يتحول إلى أمطار.

يمتلئ نظامنا الكونى بكثير من هذه الظواهر والدورات فى مجالات كثيرة من حياتنا، نشعر الآن بالسعادة ثم بعد فترة نشعر بالتعاسة، نتصارع اليوم ثم نتعب من الصراع بعد فترة ونكمن إلى الهدوء والسكينة ثم نمل الهدوء لتبدأ الدورة من جديد. إذا كان هذا هو النظام فلماذا لايسير الزمن فى دورة، يبدأ النظام الكونى من نقطة ليعود إلى نفس النقطة بعد بلايين من السنين لتبدأ دورة أخرى وهكذا تسير الحياة، مجرد فكرة مبنية على تأمل، وتخمين مبنى على نظرية الاحتمالات فأى حالة أو حدث فى هذا الكون يعتبر جزءاً من الواحد الصحيح لمجموع الاحتمالات. حتى التاريخ لم يسلم من الدورات فقد مثل الفيلسوف الألماني شبنجلر حركة التاريخ الإنسانى بالدورات المتعاقبة من نمو وانحلال فلم تكن حركة التاريخ أبداً خطأً مستقيماً إلى التقدم، كما مثل كاتب الحضارات والتاريخ الشهير توينبى حركة التاريخ بالدورات الحلزونية التى تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت.

يقوم التنبؤ (Pred / Forecasting) بالدورات أو التنبؤ بصفة عامة على المعلومات والبيانات التاريخية (Historical Data)، ومن يحلل ويدرس ماضى أى دورة يستطيع أن يتنبأ ما ستكون عليه الدورة فى المستقبل، حتى تاريخ الإنسانية أو تاريخ الحضارة يستطيع أن ينبئنا بدرجة من الدقة عما سيحدث مستقبلاً، مع الأخذ فى الاعتبار المكون العشوائى فى السلسلة الزمنية (Stochastic Component). ولكن حتى هذا المكون يمكن تحليله إحصائياً والحصول منه على بعض المؤشرات الإحصائية.

* * *

الماضى

لقد ذكرنا من قبل أن كون الإنسان تابع من الصفات والغرائز الموروثة والخبرات المكتسبة، وكل ماسبق ماضى. إن سلوكنا الحالى مبنى على الماضى وبنشر ماضينا أمام أعيننا وجذبه من بئر اللاشعور العميق ليستوى على ذاكرتنا الحاضرة نستطيع أن نحلل سلوكنا الحالى وتفهم ردود أفعالنا وتتحكم فى انفعالاتنا ونخفف من خوفنا وقلقنا من أشياء معينة، ورد فعلنا العدوانى لفعل لا يستحق منا أن نعانى من أجله، ولكن من منا يستطيع أن ينشر بدون ضغط نفسى مساوى ماضيه ليس أمام الناس فقط بل أمام عينيه أيضا. بالطبع نحن لانريد أن نتذكر الأيام السيئة التى مرت بنا أو الذكريات الحزينة التى عانينا فيها، لقد مارسنا الخطيئة فى الماضى، كذبنا وسمينا كذبنا بكذب أبيض وسرقنا ونحن أطفال وسمينا ذلك شقاوة أطفال وسرقنا ونحن كبار وبررناها بحاجاتنا الحيوية أو أرجعناها إلى ظلم المجتمع لنا، لقد ظلمنا ورسمنا على وجوهنا مسحة الإيمان والتقوى، لقد أغضبنا الله وأرحنا أنفسنا بتزديد أن الله غفور رحيم.

هل فكرت فى سبب فشل ابنك العاق، نعم قد تكون الصفات العدوانية وراثية، وأيضا قد يكون تألم كثيرا من معاملتك له فى الماضى وهو طفل صغير. هل مررت بتجربة أن تكون أنت ورئيسك فى العمل على وفاق ولكن فى ظروف معينة وبفعل معين منك قد تذكره بتجربة غير سعيدة مر بها وانطوت فى عقله الباطن فيذهب الانسجام ويحل شعور داخلى مختلف بحيث لا يشعر نحوك بالاطمئنان، إن لم يشعر بالكراهية.

قد ينسى الرجل بعض ذكريات الماضى ولكن هل تنسى المرأة ليلة الزفاف ومن نسى أن يجاملها، وهل تنسى الزوجة أى إساءة من الزوج عن قصد أو غير قصد. قد ينسى الرجل المرأة التى تخلت عنه ولكن هل تنسى المرأة الرجل الذى

هجرها وتخلي عنها.. لاتنسى المرأة الماضى لأنها تعشق أن تعيش فيه حتى وإن كان كثيراً.

لقد أرغمت أولادى على أكل أنواع معينة من الخضار الطازج والفاكهة، لقد كانت هذه الأنواع من الأطعمة من وجهة نظرى صحية وغنية بالفيتامينات والأملاح المعدنية التى يحتاجها الجسم خصوصاً فى مراحلہ الأولى، وكان فعلى من منطلق مصلحتهم فهم أطفالى وأريدهم فى صحة جيدة، وقد كبر الأطفال ونسوا أو تناسوا الضغوط التى سببت لهم ألماً كبيراً عندما أرغموا على أكل هذه الأنواع من الأطعمة فى الماضى وأصبح رد فعلهم الحاضر هو كراهية تناول هذه الأنواع من الأطعمة.

إن اجترار الماضى يتطلب طاقة نفسية هائلة للتغلب على ذكريات كثيرة حزينة قد نخجل من تذكر أكثرها، ومعظم الناس العاديين على الأقل لا يملكون هذه الطاقة ويجدوا أنه من الأسهل دفن الماضى وتناسيه ولكن هذا لا يحدث فالماضى سيظل حتى الموت كامناً فى داخلنا يظهر برأسه شامراً ساعديه إذا مر الإنسان بطروف معينة أو عند حدوث بعض الإثارة النفسية أو الذهنية.

العقل البشرى هذا الجهاز الذى يفوق بالطبع أى حاسب آلى يحتوى على معلومات وذكريات هائلة مرت بالإنسان وعند أى عملية لاتخاذ القرار أو الاختيار لابد أن تظهر، بصورة شعورية أو غير شعورية فى العمليات العقلية بعض هذه الذكريات أو التجارب السابقة إن لم يكن معظمها. قد يكون الظاهر لبعض الناس أن ذاكرتهم ضعيفة ولكن الحاسب العلقى الإنسانى المكون من طبقات من العقل الباطن والعقل الحاضر ذو سعة عالية يحتوى على كثير من المعلومات وكثير من التفاعلات والحسايات تفوق تصور الإنسان.

عندما نخالف ما أمرنا به الله أو نخالف المجتمع والقانون نشعر بتأنيب الضمير أو الشعور بالإثم والخطيئة، وهذا نوع من الصراع بين الإنسان ونفسه. لقد ولدنا على دين معين وعقيدة معينة ودرسنا فى المنزل وفى المدرسة أو حتى فى أماكن

أخرى تعاليم معينة يجب ألا نخالفها، وقوانين موضوعة يجب أن نحترمها، وأساطير تحكى لنا وترسب كل ذلك فى ذاكرتنا وأصبح ماضياً، إننا لا ننكر أن التذكرة بالعقيدة أو بالقوانين مستديمة ولا تنقطع، ولكن كونها بدأت من الماضى العميق أصبحت جزءاً من الثقافة العامة للإنسان (Culture) وأصبحت جزءاً لصيقاً من كيانه لا ينفصل عنه.

إن النظام الروتينى الذى يسير عليه الفرد أو ما يسمى بالعادة يلعب دوراً هاماً لا شعورى فى توجيه سلوكنا، إنه من السهل علينا ان نقوم بعملنا الروتينى الذى مارسناه منذ مدة طويلة، لقد أصبح النظام جزء من ذاتنا ولكن أى تغير فى هذا النظام حتى لو كان للأحسن يصيبنا بالضيق والقلق. إن الانتقال من منزل إلى منزل آخر قد يكون أوسع وفى منطقة راقية يصيبنا بالشعور بالضيق قد يتفهمه البعض، وقد لا يستطيع بعضنا أن يجد تبرير له، إن التغير فى جميع الأحوال يصيبنا بالقلق حتى لو كان للأحسن فلقد أصبح جزءاً من داخلنا عبداً للماضى.

لقد أصبح المنزل القديم أو العمل السابق جزءاً من ذكرياتنا بجلوها ومرها والانفصال عن الماضى يصيبنا بالقلق لأن المستقبل مجهول والإنسان بطبعه وغرائزه يخاف من المجهول وأما الحاضر فهو الزمن الذى ينبغى فيه على الإنسان أن يأخذ قرار أو يمارس الألم الناتج من ظروف معينة، أى أن الإنسان فى الحاضر يمارس المعاناة العقلية والبدنية. أما الماضى حتى وإن كان معظمه ذكريات غير سعيدة فإنه نسبياً لا يسبب لنا ألم كبير إلا فى بعض الحالات التى نخجل من تذكرها، والتى قد تسبب لنا ألماً كبيراً. يعتبر ألم الماضى محتمل أن لم يهدد مستقبلنا لذلك نحن نخاف من ابتزاز الماضى، ليس كونه كماضى عانينا فيه من الألم ولكن خوفاً من تأثير الماضى على المستقبل. أفرض أنك عانيت فى الماضى من الفقر والمرض وقلة المال ثم كافحت وأصبح لديك المال الوفير من منزل كبير وسيارة وخلافه من رفاهية العصر الحديث، عندما تتذكر الماضى قد تدمع عينيك إذا كنت عاطفى ولكنك ستحمد الله إذا كنت مؤمناً وستشعر باغترباط إذا كنت إنساناً عملياً

وواقعياً وفي كل الأحوال بمقارنة ماضيك بأحوالك الحاضرة ستشعر بسعادة، فلقد كافحت ونجحت ولكن بطبيعة الحال إذا كان المال ناتج من عمليات غير مشروعة فانك ستحاول أن تنسى خطيئتك، ستتناسى ذكريات الحصول على هذا المال. فقد يسبب الضمير كثيراً من الألم وقد يسبب الخوف من عقاب السلطات الأمنية والقضائية والخوف من المجتمع كثيراً من القلق والألم الداخلى.

إن ناتج ما اكتسبناه فى الماضى من تجارب بتفاعله مع ما ورثناه من آباءنا وأجدادنا يشكل شخصيتنا الحالية ويحدد معالم سلوكنا فى المستقبل، إن ناتج سلوكنا أشبه بناتج المعادلة الهندسية التى تتكون معاملاتنا من الصفات الموروثة وخبرات مكتسبة وإذا كانت الصفات الموروثة من الصعب تغييرها على الأقل فى هذا الزمن فإن الخبرات المكتسبة من الماضى تتغير باستمرار بإكتساب مزيد من التجارب، وبالتالي يتغير ناتج المعادلة، ثم يصبح الناتج ماضياً يدخل فى معامل المعادلة الجديدة فى الحاضر وتستمر هذه العملية إلى نهاية الإنسان.

تعتبر الشخصية الإنسانية أو السلوك دالة فى الزمن وهى دالة متصلة مستمرة قد يكون التغيير فيها كبيراً إذا كان التغيير فى الظروف المحيطة كبيراً ولكن لا بد أن يوجد تغير يبدأ من قبل الولادة ويستمر حتى الموت. يأتى التغيير من داخل الإنسان فتخلق خلايا جديدة وتموت خلايا أخرى، وأيضاً يأتى التغيير من الطبيعة المحيطة فالطقس البارد الملبد بالغيوم يصيبنا بالاكئاب والطقس الحار الرطب يصيبنا بالضيق، لقد عانينا مدة من الزمن من زلزال عنيف تأثر به كثير من الناس قد تكون توابعه النفسية أكثر ألماً من تأثيره المادى.

وكما نغير نحن فى الآخرين فالآخرين يسببوا لنا أيضاً تغيراً، لا نريد ان نقول تغيراً سلبياً أو إيجابياً، تغير للأحسن أو للأسوأ فكل شئ نسبى حتى التغيير، وعندما ينتهى التغيير ويصبح ماضياً فإنه يخزن كخبرات مكتسبة فى ذاكرة الحاسب الإنسانى.

فى لحظة تتوالد ملايين من الأفكار وتموت ملايين من الأفكار، فى لحظة تنتهى أشياء لم نحققها ونندم عن أشياء غير راضين عنها. لقد انتهى الماضى وجاء دور الأمانى والندم، يتصارع الإنسان مع البيئة المحيطة من مجتمع وطبيعة فقد عاقت البيئة المحيطة تحقيق ماتصبو إليه النفس، فالمنافسة قائمة وكل ما تتمناه النفس لاتدركه والطبيعة لاتسير بقانون ثابت فالاحتمال العشوائى وارد، تتحالف العناصر والظروف المحيطة بالإنسان لعدم تحقيق جميع رغباته فيصاب بالإحباط والتعاسة.

كما نجحتر فى الحاضر ماضينا فإننا أيضا نمتحلب ناتج معاناة الآخرين، لقد استمتعنا بسماع روائع السيمفونيات وقراءة روائع الكتب والروايات كما استمتعنا بمشاهدة روائع الأفلام، لولا المعاناة والألم ما ظهرت هذه الروائع. أن عبقرية وإبداع إنسان ما، ماهى إلا تخفيف ألم وكسر ملل واستمتاع إنسان آخر.

لايشعر الإنسان بالرضا الدائم عن أفعاله فيصاب بالندم ويتصارع الإنسان مع نفسه متمنيا أن يعود الزمن ويرجع الماضى إلى المستقبل ليصحح ما ارتكبه من أخطاء، فلا الماضى عاد ولا تاب الإنسان عن أخطائه. نفس الأخطاء يقع فيها دائما البشر، فالإنسان خطاء نادم. و من الأصلح أن يعيش الإنسان بشئ من الندم وإلا سيتحول إلى إنسان عديم الإحساس ولكن بشرط ألا يشدنا الندم إلى الإحباط المرضى، ومن الأفضل أن يعيش الإنسان بشئ من التمنى وإلا أصبح حامل غير متحمس وليس له رغبة فى الرقى والتقدم، نعيش بالتمنى بشرط ألا نعيش فى وهم أحلام اليقظة طوال الوقت ونقضى حياتنا نحلم بدون أن ننفذ أحلامنا.

كل شئ وجد فى الحياة مطلوب بشرط عدم الإفراط، كل شئ وجد لحكمة، حتى الأشياء التى نهينا عنها وجدت لحكمة الصبر على عدم الاستعمال ومن أجل الحرمان وعدم استعمال شئ تمنى النفس أن تستعمله للاستفادة به، ومن أجل الطاعة والإذعان.

* * *